مختارات مما لم يُنشر

من شعر البحتري

- ٢ -

قال البحتري [١] يمدح المتوكل على الله [٢] :

نَصَبٌ[٣] إلى طِيبِ العراقِ وحُسْنِها[٤] ويَمْنَعُ منها قَيْظُها وحَرُورُها[٥]

---

(١) القصيدة من الطويل ، عدد أبياتها ١٢ ، نقلناها من مخطوطة ديوان البحتري بالمكتبة الوطنية بباريس (رقم ٣٠٦٨ من القسم العربي) الورقة : ١٧٧ ظ ، ومما يؤكد صحة نسبتها إلى البحتري أن ياقوت أورد الأبيات (١ — ٨) منها وقدّم لها بقوله : وقال البحتري يفضل الشام على العراق (معجم البلدان ، بيروت : ٣ / ٣١٤ — ٣١٥) .

(٢) هو جعفر بن المعتصم ، عاشر الخلفاء العباسيين ، امتدت خلافته خمس عشرة سنة (٢٣٢ — ٢٤٧ هـ) قضاها في نضال دائم للقضاء على استبداد الأتراك ونفوذهم ، وكان عهده المرحلة الذهبية في حياة البحتري ، وشعر البحتري سجل حافل بكل ما جرى في خلافة المتوكل من أحداث ، ومنها هذه الرحلة التي قام بها المتوكل إلى دمشق ، وكان البحتري في موكب حاشيته .

(٣) صَبِبْنا — نَصَبٌ : من الصبابة ، وهي الشوق ورقة الهوى .

(٤) ياقوت : ... أرضِ العراق وحسنه ويمنع عنها ...

(٥) الحَرور : الريح الحارة بالليل ، وقد تكون بالنهار ، والحرور : الحرارة وهي هنا ليست بشيء لأن في ذكر القيظ غنى عنها ؛ أما شكوى الشاعر من قيظ العراق فهو يعلنها منذ خروج المتوكل من سامراء :

قد رحلنا عن العرا قِ وعن قيظها النَّكِدْ

(الديوان ، الجوائب : ١ / ٩ ، والقصيدة من مجزوء الخفيف ، وفي الديوان « قطبها النكد » وهو تصحيف) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

هي الأَرضُ نهواها إذا طابَ فَضْلُها ... ونهرُبُ منها حين يَحْمى هَجِيرُها
عشيقَتُنا الأولى وخُلَّتُنا التي ... نُحبُّ وإنْ أضحَتْ دِمَشْقُ تُغيرُها (١)
عُنيتُ بشرقِ الأرضِ قِدْماً وغَرْبِها ... أُجوِّبُ في آفاقِها (٢) وأسيرُها
فلم أرَ مثل الشامِ دارَ إقامةٍ (٣) ... لِرَاحٍ تُغاديها وكأسٍ تُديرُها (٤)
مَصَحَّةُ أبدانٍ ونُزْهةُ أعينٍ ... ولَهْوُ نفوسٍ دائمٌ وسرورُها
مقدَّسةٌ جادَ الربيعُ بلادَها ... ففي كُلِّ دارٍ روضةٌ وغديرُها

(١) في مخطوطة الديوان : (تَعِيرها) : من عاره إذا عابه ، ولبست بشيء ، وقد آثرنا رواية ياقوت (تُغِيرها) وهي بمعنى تثير غيرتها ، لأنها من أغار أهلَه إذا تزوج عليها فغارت ، وبذلك يتم ربط عجز البيت بمعنى صدره .

(٢) أكثر البحتري من التطواف في أرجاء الامبراطورية العباسية المترامية الأطراف ، برّها وبحرها (انظر ما كتبناه في مقدمة أخبار البحتري للصولي ص : ٥) .

(٣) يزيّن الشاعر للمتوكل أن يتخذ من دمشق دار إقامة ، وكثيراً ما كان البحتري يُطري للخليفة محاسن دمشق ، ويدعوه إلى أن يؤثرها بهواه :

وكيف لا تُؤثِرُها بالهوى ... وصيفُها مثلُ شتاءِ العراقْ

(الديوان ، الجوائب : ١/١٧٣ والقصيدة من السريع) ويبدو أن المتوكل استجاب لشاعره فعزم على «نقل دواوين الملك إلى دمشق» (انظر الطبري وابن الأثير : حوادث سنة ٢٤٤) لولا أن الجند شغبوا عليه (انظر المسعودي : مروج الذهب : البهية بمصر ١٣٤٦ : ٢/٣٨٩ — ٣٩٠) .

(٤) ياقوت : لراحٍ أُغاديها وكأسٍ أُديرُها

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

تبَاشَرَ قُطراها وأضعف حسنُها بأنّ أميرَ المؤمنين يزورُها
توجهتَ مصحوباً إليها بعَزْمَةٍ مضىٰ بِسَدَادٍ بَدْؤُها وأخيرُها
وفي سنةٍ (١) قد طالعتْكَ سُعودُها وقابَلكَ النَّيْرُوزُ (٢) وَهْوَ بَشيرُها
فَصِلْها بأعوامٍ تَوالى (٣) ولا تَزَلْ مقدّسةً أيّامُها وشُهورُها
وعِشْ أبداً للمكرُماتِ وللعُلا فأنتَ ضِياءُ المكرُماتِ ونُورُها

* * *

(١) غادر المتوكل سامرا لعشر بقين من ذي القعدة من عام ٢٤٣ هـ إلى دمشق عن طريق الموصل ، ووصل إلى دمشق لثمان بقين من صفر عام ٢٤٤ هـ وأقام فيها ثمانية وثلاثين يوماً (انظر تاريخ اليعقوبي ، ليدن ١٨٨٣ : ٢/ ٦٠٠) .

(٢) النيروز والنوروز اسم فارسي معرب معناه اليوم الجديد ، وهو أعظم أعياد الفرس ، وزمانه اليوم الأول من السنة الفارسية التي تبتدئ بالانقلاب الصيفي ، وقد شهد المتوكل في دمشق مقدم الصيف ، لأن إقامته فيها من صفر إلى أول ربيع الثاني من عام ٢٤٤ هـ ، أي من أيار إلى تموز من عام ٨٥٨ م .

(٣) أصلها (تتوالى) فحذف التاء ، والبحتري يكرر هنا ثانية دعوة الخليفة إلى إطالة البقاء في دمشق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ملاحظات ونظرات

١ — هذه القصيدة واحدة من خمس ، نظمها البحتري كلّها أثناء رحلة المتوكل إلى دمشق ، وفي هذه القصائد يتغنى شاعر المتوكل بطيب العيش في دمشق وباعتدال اقليمها ، ويفضلها لذلك على العراق وقيظها ، وديوان البحتري يحوي القصائد الأربع الأخرى (الديوان ، الجوائب : ١/ ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٧٣) أما هذه الرائية فتُنشر كاملة لأول مرة ..

٢ — تحديد تاريخ نظم القصيدة إذاً ممكن ، ذلك أن المؤرخين القدامى عُنوا بالكلام على رحلة المتوكل إلى الشام ، وهي الرحلة الوحيدة التي قام بها هذا الخليفة العباسي إلى خارج العراق طوال مدة خلافته ، ولهذا نستطيع أن نؤكد بالدقة أن البحتري نظم القصيدة سنة ٢٤٤ هـ ، وفي الربع الأول منها ، عندما كان المتوكل في دمشق .

٣ — لهذه الرحلة شأن بعيد المغزى في سياسة المتوكل ، ولكن مؤرخينا القُدامى لم يدققوا في هذا الحدث الخطير ، واكتفوا عند الحديث عن عودة الخليفة إلى العراق بإيراد بعض الأسباب الاقليمية والغذائية ، فالطبري يذكر أن المتوكل استوبأ دمشق لأن الهواء بها بارد ندي ، والماء ثقيل ، والريح تهب فيها مع العصر فلا تزال تشتد حتى يمضي عامة الليل ، وهي كثيرة البراغيث .. ويتحدث الطبري عن غلاء الأسعار في الشام وعن حيلولة الثلج دون السابلة والميرة ، ويتابع ابن الأثير الطبريّ دون تحقيق ، والتحقيق أن المتوكل لم ينزل دمشق ليستوبئ سكناها ، وإنما نزل في قصر المأمون بداريا ، على بعد ساعة من دمشق ، وهذا الموضع في أعلى الأرض ـ كما يقول المسعودي ـ يشرف على دمشق وأكثر الغوطه (مروج الذهب : ٢ / ٣٨٩) ، والتحقيق أيضاً أن المتوكل كان في دمشق في وسط الصيف ، بين أيار وتموز ـ كما قدّمنا ـ

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

فمن أين تتراكم الثلوج وتحول دون وصول الميرة ! المؤرخون المحدثون استطاعوا أن يدركوا أن وراء عودة المتوكل المفاجئة إلى العراق ، بعد عزمه على نقل دواوين الخلافة إلى دمشق ، سراً لم يكشف عنه أسلافهم ، فهذه الرحلة مظهر من مظاهر النزاع بين المتوكل والأتراك ، وقد حاول الخليفة بها أن يتخلص من النفوذ التركي الخانق في سامرا بنقل مركز الخلافة إلى منطقة نفوذ عربية ، إلى دمشق ، ولكن الأتراك انتبهوا إلى هذه الخطة وخطرها ، فشغبوا على المتوكل ، وحاولوا اغتياله ، وأجبروه على العودة . (انظر دراسات في العصور العباسية المتأخرة لعبد العزيز الدوري ، بغداد ١٩٤٥ : ص ٤٥ وما بعدها) .

٤ — ويعتقد بعض الباحثين أن البحتري قد أسهم في دعم سياسة المتوكل للخلاص من نفوذ الأتراك ، فهو منذ بعيد يُطري للخليفة محاسن الشام ، ويثير شوقه إلى فتنة طبيعتها ، إلى أن عزم المتوكل على الرحلة إليها ، ولهذا يقول له البحتري في إحدى قصائد الرحلة : (الديوان ، الجوائب : ١ / ١١) :

أما دمشقُ فقد أبدت محاسنَها وقد وفى لكَ مطريها بما وعدا

وقد بذل البحتري جهده ليحبب دمشق إلى المتوكل ، ويدفعه إلى إيثارها على العراق ، وليس بعيداً أن يكون البحتري هو الذي حمل المتوكل على المقام بالشام ونقل دواوين الملك إلى دمشق . (انظر : في الأدب العباسي الدكتور محمد مهدي البصير ، بغداد ١٩٤٦ : ص ٢٣٤) .

٥ — أبيات القصيدة تنبض بحب الشاعر الشامي لوطنه ، فهو يفضل الشام على العراق ، ولا يعدل بدمشق داراً أخرى لسكنه ، ولا يرى في الأرض كلها ، شرقها وغربها ، مثيلاً لها في إفادة اللهو والسرور ، فهي صحة البدن ونزهة العين ولهو النفس ، وهو يتمنى أن ينقل المتوكل سرير ملكه إليها ، ولهذا نجده يحث الخليفة على إطالة البقاء فيها ، ويلفته إلى مميزاتها ، فهي أرض

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

مقدسة ، أهدى الربيع كلَّ دار من دورها روضةً وغديراً ، وستزداد محاسنها اشرافاً بهذه الزيارة لها ، وتطيب أيامها وشهورها كلما طال مكث المتوكل فيها ، وهذه القصيدة أرادها البحتري في مدح المتوكل ، فغالبه حبه للشام على إرادته فجاءت قصيدته تحية اعجاب وحب لدمشق ومفاتن الطبيعة فيها .

٦ — تمتاز القصيدة إذاً بوحدة موضوعها ، فالأبيات كلها تتحدث عن جمال الطبيعة في دمشق ، وتمجيدها وتفضيلها على العراق وحث الخليفة على البقاء فيها ، وهي من جيد شعر البحتري في المتوكل ، وشعره في المتوكل أجود شعره وأصفاه .

- ٣ -

وقال البحتري [١] يمدح محمد بن حُمَيْد الطُّوسي [٢] :

---

(١) القصيدة من الخفيف ، عدد أبياتها ٢٣ ، نقلناها من مخطوطة الديوان بالمكتبة الوطنية بباريس ، الورقة ١٤٣ و — ظ ، إلا البيت الخامس منها فقد نقلناه من (المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام لعبد القاهر الجرجاني ، بتحقيق السيد عبد العزيز الميمني : الطرائف الأدبية مصر ١٩٣٧ : ص ٢٤٣) وقد وجدنا في هذا (المختار) البيتين الرابع والخامس ، وذلك يؤكد صحة نسبة القصيدة إلى البحتري .

(٢) هو أبو نهشل الطائي ، محمد بن حُميد بن عبد الحميد الطوسي ، ممدوح أبي تمام والبحتري ، وقد مدحه البحتري بشعر كثير ، وآل حميد بيت شجاعة وفروسية وأدب ومجد ، منح الخلافة العباسية عدداً من كبار قادة جيوشها ، وقد مدحهم شعراء عصرهم ورثَوا مصارع الأبطال منهم عند الثغور ، وأخبارهم منثورة في كتب التاريخ (وانظر معجم الشعراء للمرزباني ص : ٤٢٧ والأغاني ، بولاق : ٩/١٠٢ — ١٠٣) .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بعضَ[١] هذا الملامِ والتفنيدِ[٢] ليس هجرُ النوى كهجرِ الصدودِ
زعم العاذلون أن الذي يُصْـ ـبيهِ[٣] نُجْلُ العيونِ غيرُ رشيدِ
كذب العاذلون قد يَحْسُنُ الحبُّ بِمَنْ ليس قلبُه من حديدِ
يارُبوعَ الديارِ إنّي على ما قد أراهُ منكنّ غيرُ جليدِ
[أخلقَ الدهرُ عهدَكنّ وللدهـ ـرِ صُروفٌ يُخْلِقْنَ كلَّ جديدِ[٤]]
فرّقت شملَنا النوى بعد ما كنّـا جميعاً في ظلِّ عيشٍ حميدِ
لو[٥] ترانا عند الوداع وقد لوّ (م) نَ سكبُ الدموع وردَ الخدودِ
حين ساروا بغانياتٍ وِسامٍ[٦] آنساتٍ حُورِ المدامعِ غِيدِ
يتلفّتْنَ من بعيدٍ وينظُرْ نَ استراقاً إلى المحب العميدِ[٧]

---

(١) للبحتري قصيدة يمدح بها الوزير محمد بن عبد الملك الزيات ، ومطلعها مماثل لهذا المطلع : (الديوان ، الجوائب : ٢/١٩٣) :

بعضَ هذا العتاب والتفنيد ليس ذمُّ الوفاء بالمحمود

(٢) التفنيد : التكذيب وتخطئة الرأي وتضعيف القول .

(٣) أصباه : شاقه وفتنه ودعاه إلى الصبا .

(٤) البيت زيادة من (المختار ..) للجرجاني .

(٥) لو : هنا ليست للشرط ، فلا جواب لها ، وتحتمل التمني والعرض .

(٦) وِسام : جمع وسيمة ، والوَسامة أثر الحسن .

(٧) العميد والمعمود والمعمَّد : الذي هدّه العشق وأضناه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يتهادَيْنَ حول مُحْوَرَّةِ العيـــنينِ مصفرّةِ الترائب(١) رُودِ(٢)
أعجلَتْها النوى فما نلتُ منها طائلاً غيرَ نظرةٍ من بعيدِ
سوف أُعطى السلوّ والصبرَ ما أُمـــنَعُ من(٣) طارفِ الهوى وتليدِ
بالمهارى(٤) يلْبَسْنَ ثوباً جديداً مُسْتَفاداً في كلِّ وقتٍ جديدِ
وهي طولَ النهار بيضٌ وطولَ(٥) الـــلَيْلِ في أقْنُصٍ من الليل سُودِ
طالباتٌ في الغَوْثِ غَوْثاً سَكُوباً وحميداً في آلِ عبدِ الحميـدِ(٦)
جادَ حتى لو اُستُزيد من الجُو دِ لَما كانَ عنده مِن مَزيدِ
خُلُقٌ يامحمّدُ بنَ حُمَيْدٍ حُزتَه عـن أبوّةٍ وجدودِ

---

(١) الترائب : موضع القلادة من الجسم أو ما بين الثديين ، ويريد الشاعر من اصفرار الترائب أنها مصبوغة بالزعفران ، وهو من الطِّيب ، وقيل : أهلك النساء الأصفران : الذهب والزعفران .

(٢) رُود مسهلة من رُؤْد وهي الفتاة الحسنة الشباب ، تشبيهاً لها بالغصن الرطب الرخص .

(٣) في الأصل : ما ، ولا يستقيم بها معنى البيت وإعرابه ، و (ما أمنع) ما مصدرية ظرفية ، ومعنى البيت أنني سأسلو عمن فارقوني ، مدةَ ما يُمنع عني جديدُ الهوى وقديمه ، برحلة إلى الممدوح ، أركب المهارى .. إلخ ..

(٤) المهارى الإبل المهْرِيَّة ، وهي المنسوبة إلى قبيلة مَهْرَة .

(٥) في الأصل : طوال ، وهو خطأ ، ولا يستقيم الوزن به .

(٦) الممدوح اسمه محمد بن حميد بن عبد الحميد .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

يَشْهَدُ الحربَ منكَ ليثُ عرينٍ غيرُ هيّابةٍ ولا رِعْديدِ
أسدٌ يركبُ السيوفَ إذا ما فُلَّ تحت السيوفِ صَبْرُ الأُسودِ
يتخطّى فيها رقابَ المنايا غيرَ ما ناكلٍ ولا مَزْؤودِ (١)
في نهارٍ من السيوفِ مُضيءٍ تحتَ ليلٍ مِنْ مُسْتَثارِ الصَّعيدِ (٢)
وعوانٍ (٣) تُحَلُّ تحتَ وَغاها عُقدةُ الفارسِ الشجاعِ النجيدِ (٤)
يَخْرَسُ الدارعونَ فيها فما يُسْمَعُ فيها إلا كلامُ الحديدِ

* * *

(١) المزؤود : المذعور ، من زَأَده : أفزعه .
(٢) الصعيد : التراب ، والتراب المثار كناية عن المعركة .
(٣) العوان من الحروب ، الحرب التي قوتل فيها مرة بعد الأخرى ، كأنهم جعلوا الأولى بكراً ، لأن العوان من النساء هي الثيّب .
(٤) النّجيد والنَّجْدُ والنَّجُدُ والنَّجِد : الشجاع الماضي فيما يُعجز غيرَه .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

ملاحظات ونظرات

١ — ممدوح البحتري في هذه القصيدة محمد بن حميد ، القائد العباسي ، شخصية كبرى من شخصيات شعر البحتري ، وهو شاعر مقل (الفهرست ، الرحمانية بمصر ١٣٤٨ هـ : ص ٢٣٥) يروي صاحب الأغاني بعض أخباره (ج ٩/ ١٠٢ — ١٠٣) ، وقد مدحه البحتري بقصائد كثيرة ، منها ١٥ قصيدة في ديوانه المطبوع ، وقصائد أخرى لم تزل إلى اليوم مخطوطة ، ومنها هذه القصيدة .

٢ — ليس سهلاً تحديد تاريخ نظم القصيدة ، ذلك أن البحتري اتصل بآل حميد في بغداد ، في حياة أستاذه أبي تمام الذي كان يستجيد شعر البحتري فيهم (أخبار البحتري : ٦٩) ، وفي خلافة المتوكل أيضاً ؛ وليس في القصيدة ما يُعين على تأريخها ، ولعلّ في حرارة أبيات الغزل وما يذكر الشاعر فيها من تعلق الغانيات به وتلفتهن إليه عند الرحيل ما يسمح لنا بأن نرجّح أن تكون القصيدة من نتاج مرحلة الشباب .

٣ — يمكن أن نلاحظ في القصيدة أقساماً ثلاثة :

أ — النسيب : ويشغل الأبيات (١ — ١١) وقد أغناه الشاعر بالحملة على العذال ، وبالحنين إلى ديار المحبوبة ، وبتصوير بعض الذكريات الباكية لساعة الفراق والرحيل ، وبوصفٍ خاطفٍ لبعض مفاتن المحبوبة ذات العينين الحوراوين ، والترائبِ الفوّاحة بطيب الزعفران ، والقامةِ المتأوّدة كالغصن الرخص .

ب — وصف الإبل : ويشغل الأبيات (١٢ — ١٤) وهي الركائب التي حملت الشاعر إلى الممدوح ، وهي إبل مَهْرِيّة تُغذّ السير ، وتطوي الليل والنهار ، لتبلغ ديار الممدوح .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

جـ — المديح : ويشغل الأبيات الباقية (١٥ — ٢٣) وهو الغرض الرئيسي من القصيدة ، والبحتري يُقدم فيه للممدوح صورة تقليدية لا تكاد تبدو فيها ملامح خاصة تميز محمد بن حميد الطوسي من غيره من ممدوحي البحتري ، على أنه جمع فيها أقانيم المديح الثلاثة (الكرم وشرف النسب والشجاعة) فالممدوح غوث مكسوب ، يجود بكل ما لديه ، وهو شريف في بيته ، ورث الكرم عن أبوّته وجدوده ، وهو في الحرب ليث مقدام ، يخوض المعارك الطاحنة ، ويتخطى فيها رقاب المنايا ، غير هيّاب ولا ناكل ، وكل من في المعركة هادئ صامت أخرس ، فلا يُسمع غير قعقعة السلاح وصليل السيوف .

٤ — يُلاحظ أن النسيب قد استأثر بأكثر الأبيات وطغى على حصة المديح ، وهو الغرض الرئيسي ، كما نلاحظ أن البحتري قد أحسن التخلص هذه المرة من النسيب إلى المديح ، فلم يكن انتقاله اليه مفاجئاً كما عوّدنا أن يفعل ، وهكذا كان وصفه للإبل التي حملته إلى الممدوح وسيلةً لغرضٍ فنّي ، هو ما يسميه البلاغيون بحسن التخلص ، وعلى الرغم من أن هذه الوسيلة تقليدية معروفة في الشعر القديم ، فإن عرض البحتري الحيّ السريع المحكم لها خفف من ابتذالها .

٥ — استوفى البحتري في أبيات المديح جزئيات الصورة التقليدية للممدوح ، وعرضها عرضاً خاطفاً سريعاً ، ولكنه ألحّ على تصوير شجاعة ممدوحه وثباته في المعارك ، حتى شغل بذلك الأبيات الستة الأخيرة ، ولم يترك للكرم وشرف النسب مجتمعَيْن غيرَ أبيات ثلاثة ! ومثل هذا الإلحاح على تصوير شجاعة الممدوح أمرٌ طبيعي فصورة محمد بن حميد القائد العباسي لا بد لها من أن تطغى — في عيني شاعر مصوّر كالبحتري — على مزاياه الأخرى .

٦ — القصيدة من جيّد شعر البحتري ، اجتمع لها رقة اللفظ وسهولته ، وبساطة التركيب وقوته ، وموسيقى الصياغة وعفويتها ، وجمال الصورة ووضوحها ، ولو توفر لها غنى العنصر الفكري وطول النفس لكانت من مختار الشعر العباسي ومستجاده .

(يتبع) الدكتور صالح الأشتر

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net